الجزيرة تنتفض مرة أخرى

تنتفض الجزيرة العربية اليوم انتفاضتها الأخرى، وكانت الأولى منذ أربعة عشر قرنًا حين شاء الله أن تخفق على الجبال الصهب، فوق الرمال الصفر، أجنحة الوحي نازلة بنور السماء وعبير الجنة وسلام الروح ووحدانية الله وحرية الإنسان وعدالة الحق، على بلد أوبقته الوثنية وأهلكته العصبية وأكلته الحروب واستعبده الطغيان واستذله الحرمان وهان على الدنيا حتى أكل القذر وشرب الكدر وعبد الحجر وشرد عن ركب الحياة.

فلما أصابه الغيث الإلهي اهتز القفر، وربا الصخر، وأنبت هذا البلد الجديد أخصب العقول بالرأي الحكيم، وأرطب القلوب بالإيمان الصادق، وأثبت الأيدي بالسيف الرادع وهؤلاء هم أصحاب محمد الذين بسطوا ظلال الله على صحاري الجزيرة؛ فنبضت بالحياة ورتعت في النعيم واطمأنت بالأمن ثم انتقل منها طلعها الخصب مع الرياح اللواقح إلى كل أرض !...

* * * * *

تلك كانت الانتفاضة الأولى للجزيرة التي وضع فيا أول بيت للناس، وبعث بها آخر رسول لله، انتفضتها بروح من عند الله ما شاء أن تنتفض، ثم انقبض عن صحاريها الظل، وخبا في أرجائها النور، فعادت كما كانت بالأمس قطعة منبَّتة متروكة، لا هي في عداد الناس ولا هي في حساب الزمن !.

جمدت الجبال فلا توحي، وصمتت الرمال فلا تهمس، .... فلم تعد له في النفوس معاني الوحي، واستعجم العرب فلم يعودوا يتدبرون آي القرآن. وقضت الجزيرة شمالها وجنوبها ألفا ومائتي سنة في ردة عامة ورقدة شاملة، لا يسعى فيها إلا ملك يطغى، وإمام يجور، وفاتك يلض، وشارد يهيم، وجائع يتضور. وانطمست آثار العمرين والخالدين [1] تحت أقدام الطغاة الفجرة من آل الحسين وآل سعود وآل حميد الدين، وتحطمت أصنام الشرك في مكة لتعود حية ناطقة في قصور الحجاز ونجد واليمن.

---

(1) العمران: أبو بكر وعمر. والخالدون: خالد وسعد.

جثمت هذه الأصنام الثلاثة بصدورها الحجرية على إنسانية الشعب العربي وكرامته وإرادته وثروته لا تتحلحل ولا تريم، يشربون ويسكي انجلترا وهو يشرب أبوال الإبل، ويأكلون خنازير أمريكا وهو يأكل دواب الأرض، وينفقون أمواله على حسان الترك والإنجليز وهو عاري الجسد خاوي الجوف لا يشعر بالحياة ولا تشعر به الحياة؛ حتى جاء عصر الذرة الذي راد السماء وزلزل الأرض وبلبل الأنفس وزعزع العروش فصاح بالنائم أن يستيقظ، وبالغافل أن يعي، وبالمتخلف أن يلحق.

وهبت على العالم العربي هبة من جانب مصر فيها ريح النبوة، ولها صوت الحق، يقول للشعوب الخانعة: إنكم مسلمون والمسلم لا يدين إلا الله، وإنكم عرب والعربي لا يستكين للذل، وإنكم أصحاب الأرض وما فوقها من زرع وضرع، وما تحتها من بترول وركاز، فليس من شهامة العربي ولا من كرامة المسلم أن تدعوا هؤلاء الطفيليين الفضوليين يستأثرون بخيرها دونكم، وما قوتهم إلا منكم ولا سطوتهم إلا بكم.

فإذا جردوا من الألقاب المزيفة، وأزيلوا عن العروش المستعارة، عادوا ناسا أقل من الناس؛ لأنهم كما قلت أصنام ينطق في أفواههم الشيطان ويوسوس في صدورهم المستعمر. ورحم الله شاعرنا الذي قال:

عجبت لقوم يخضعون لدولة ... يسوسهمُ في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها ... وأموالها منهم ومنهم جنودها

هنالك استجاب المستضعفون في الأرض والمعذبون في الناس لدعاء عبد الناصر إلى المبادئ الخالدة التي نزلت من عند الله على محمد رسوله، وأدركوا بعد لأي أن الأمر شورى، وأن الزرق شركة، وأن الحكم عدالة، فتحرك الأردن فصرخ الطفل، وتمردت السعودية فكش الملك، وثارت اليمن فطاح الإمام !.

وعى عرب الجزيرة أن بواديهم لم تعد رملا ولا صخراً، ولا آباراً تبض بالماء، ولا مراعي تضن بالعشب، وإنما أصبحت بفضل الأبحر السود التي تعج من تحتها بالنفط، مناجم تقذف بالتبر، وقصوراً تضج بالجواري، وجنانا تفيض بالنعيم. ولكنهم رأوا أولئك كله احتوشته فئة باغية لتكنزه في مصارف سويسرا ولندن، وتنفقه في مواخير كَبْرى وباريس، فقالوا للمارق السارق: حسبك ! إن الراعي الفرد يستطيع أن يسوق

القطيع الضخم بعصاه فيجتز صوفه ويبتز لبنه ويجتز رأسه ما دام لا يعرف أن له قروناً تبقر البطون، وتقلق الرءوس، فإذا عرف ذلك – ولابد أن يعرف – انقلبت قرونه دبابات تحطم، وحوافره مقذوفات تبيد.

بهذا الوعي الذي أيقظته سَورة تاريخ، وأنضجته عبقرية جنس، وأكملته عقيدة دين، سرت في العالم العربي روح من قلق الروح لا يصبر على الهون ولا يرضى بالدون ولا يعنو وجهه لغير ربه.

وبهذا الروح القلق الذي ملك الجزيرة كلها رأسها وقلبها وأطرافها، تلاقت العدنانية في الشمال والقحطانية في الجنوب على موعد من مواعيد الحق، ليضعوا الأغلال التي عليهم في أعناق من استعبدوهم باسم الدين، واستذلوهم بقوة الجهل، ولينطلقوا إلى حياة أفضل ومكان أكرم يلقيان بالجيل الجديد في الوجود الجديد.

* * * * *

ظلت اليمن حقبًا طوالاً معرة العالم المتحضر المتحرر، تجري عليها حركات الدهر وهي ساكنة سكون الجماد لا تشعر بالفلك وهو دائر، ولا بالعالم وهو سائر، لأن (الأئمة) – أخذهم الله بما صنعوا – استعانوا على عزله عن الوجود بالفقر ولجهل والمرض والقات[1] والترهات والشعوذة فما كان يظن ظان أن من ألح عليه الخدر يفيق، ولا أن من استبد به الضرر يطيق.. ولكن حدثت المعجزة وانشقت أرض صنعاء وتعز عن أبناء التبابعة والأذواء، يتساءلون في تباشير الفجر: من الذي أطبق على نفوسنا الليل، وأطفأ في عيوننا النهار، حتى حسبنا أن الظلام سرمد؟. وكان الجواب دويا كنفخة الصور انبعث من مصر يقول: ومَن غير الأئمة من آل حميد الدين يستطيع أن يجعل آية النهار عمياء ولسان الحق أبكم؟ وتكاتفت الثورتان: ثورة السلال وثورة عبد الناصر على أن تحطما السد الذي حجر الماء والنماء والتقدم عن اليمن السعيدة. فألقى الملكان الضئيلان سعود وحسين بجثتيهما النخرتين أمام السد لمنهار ليؤخرا ساعة انقضاضه، فما زاده إلا ضعفا على ضعف !.

---

(1) القات نبات مخدر يمضغ أوراقه أهل اليمن فينتشون.

أعلمت كيف كانت تحكم اليمن؟.

إليك مثالاً واحدًا من آلاف: حدثني المغفور له صديقي الدكتور عبد الوهاب عزام وكان سفيراً لنا في السعودية واليمن، أنه بات ليلة من ليالي الشتاء في ضيافة الإمام يحيى هو وبعض صحبه، وكان البرد قارصا، وكانوا قد وضعوا على كل سرير بطانية واحدة من غير لحاف. فاستعان كل منهم على الدفء بمعطفه إلا واحداً لم يكن عليه معطف، فطلب السفير من القيم على دار الضيافة بطانية أخرى للضيف المقرور، فحك القيم قفاه وقال إن في هذه المسألة مشكلة: لابد أن يرفع إلى الإمام طلب بهذا الطلب تشرح فيه الحال الداعية إلى هذه البطانية، فإذا اقتنع بالأسباب – وقليلا ما كان يقتنع – أخرج مفتاح المخزن من سلسلة في عنقه، ودفعه إلى أمينه الخاص فيخرج المطلوب إلى المتعهد ثم يعود به إليه. والإمام قد دخل مخدعه الآن فلا سبيل إلى الدخول عليه!!.

بماذا تريد أن أعلق على هذه الواقعة، واستبداد الإمام قد تغلغل إلى خيط الإبرة وشرك النعل وسير اللجام؟ أليس هذا الفرعون الصغير واقعًا في مرمى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: 4 – 5]. صدق الله العظيم.